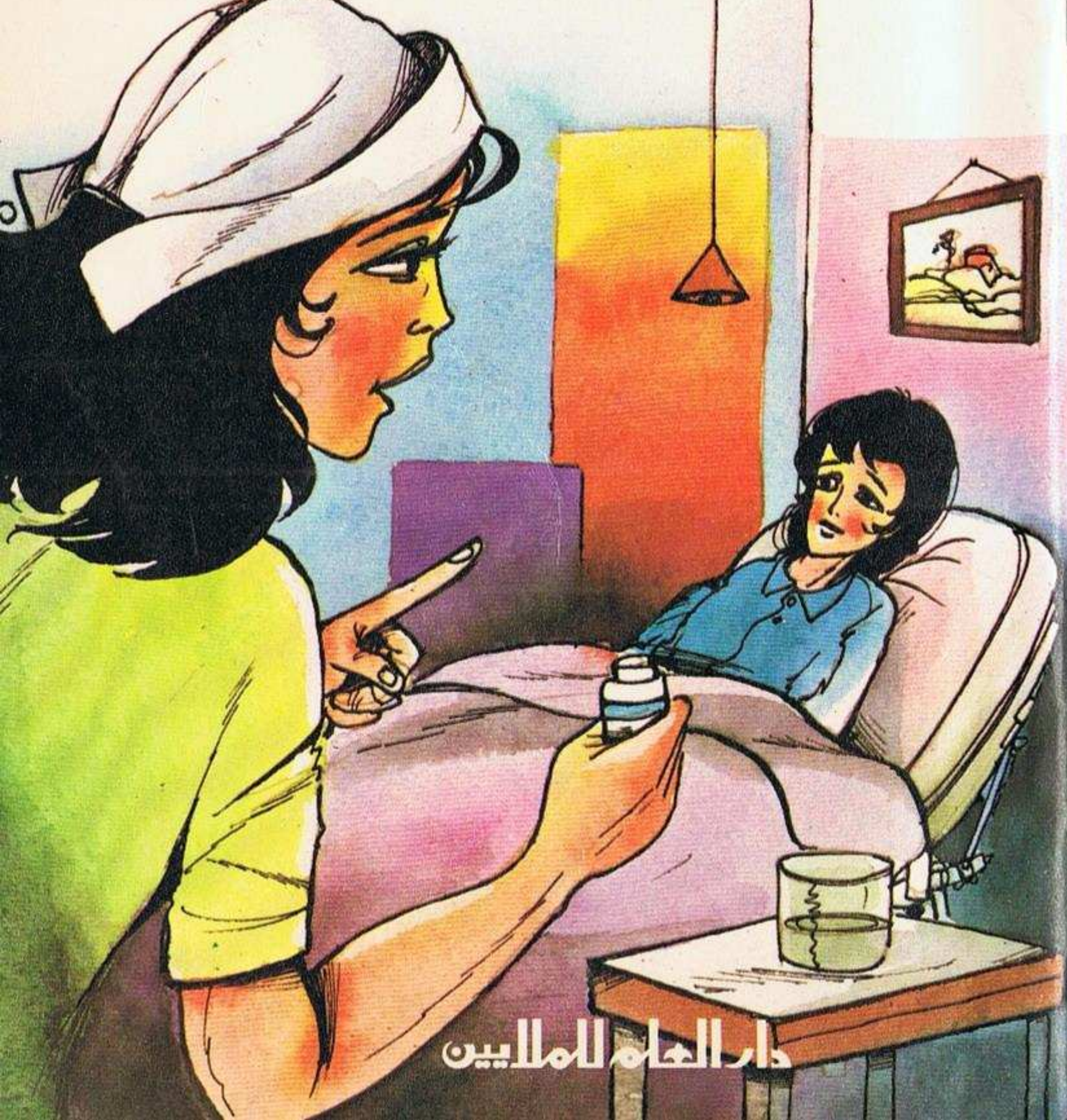
الممرضة الصغيرة



سلسلة

عبقريات مبكرة

صدر منها

- الطبيب الصغير
- الربان الصغير
- القاضية الصغيرة
- القائد الصغير
- الرياضي الصغير
- الموسيقار الصغير
- المهندس الصغير
- الممرضة الصغيرة
- المخترع الصغير
- لاعب كرة القدم الصغير

دار العلم للملايين

الممرضة الصغيرة

عبقريات مبكرة

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين
صندوق البريد: ١٠٨٥
تلكس: 23166 MLAYIN LE
بيروت – لبنان ١٩٨٨

بقلم وريشة: طارق العسلي
إخراج وإشراف: المهندس طارف عثمان
تنضيد: شركة الحرف الالكتروني
تصوير وطبع: مطبعة نصر الله

١ - يَوْمٌ مُمْطِر

المطر يتساقط بغزارة وهو يطرق زجاج نوافذ المنزل بشدة.. بينما «أبو ربيع» جالسٌ على أريكته المفضلة يقرأ جريدة الصّباح وقد تدثر بردائه الصّوفي. فقد كان يشعر بالبرد بالرَّغم من جوِّ المنزل الدافىء.. ربما كان شعوره

بالبرد سببه الإيحاء الذي يعطيه صوت المطر المتواصل الذي يَنْقُرُ الزُّجاج.. أو ربما كانت التدفئة غير كافية فعلاً..

هذا ما كانت تفكر فيه « ريمة » وهي تنظر إلى أبيها مستغربة، لقد عرفته رجلاً نشيطاً صحيح الجسم ولم يكن من عادته أن يتأثر كثيراً بالبرد. لكنها طردت الأفكار المقلقة من رأسها وقالت لنفسها بصوتٍ هامس: « ربما أُصيب بعدوى الزكام من زملائه في العمل ».. ثم اقتربت منه بهدوء وهي تبتسم وقالت:

- أبي.. صباح الخير..

- صباح الخير يا ابنتي.. هل نمتِ جيداً؟

- أنت تعرف يا أبي أن نومي ثقيل ولا يمكن لصوت الرعد أن يوقظني من نومي..

- حقاً كانت ليلة عاصفة.. لم يتوقف البرق والرعد لحظة..

- يبدو من كلامكَ أنكَ لم تنم جيداً الليلة الفائتة..

- لا أدري.. أُصِبْتُ بالأرق طَوال الليل..

- هل أنت على ما يرام يا أبي؟!

- إني بخير.. لا تقلقي.. أشعر ببعض البرد فقط.. على كل حال، هذه الأنباء التي أقرأها في الجريدة كفيلةٌ برفع حرارتي.. إننا نعيش في عالم مجنون.. حروب ودمار في كل مكان..

ريمة فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، تعيش مع عائلتها الصغيرة المكوَّنة من والدها ووالدتها وأخيها الذي يكبرها بثلاث سنوات والذي يدرس الآن في إحدى جامعات أوروبا بعد أن نال شهادته الثانوية بتفوُّق جعله يفوز بمنحة دراسية.

كان من عادة هذه العائلة الصغيرة أن تقضي يوم العطلة خارج المدينة بعيداً عن الضجيج والهواء الملوَّث كما يفعل أغلب الناس أيام العُطل، ولكنها في هذا اليوم اضطرت إلى البقاء في المنزل، فقد كان الطقس عاصفاً وممطراً ولم يكن من المستحسن الخروج من المنزل في هذا الجو..

كان الأب قد استيقظ باكراً وتناول جريدته من

أمام الباب حيث تعوَّد الموزع أن يتركها له كل يوم وجلس يقرأها، أما ريمة التي كانت تَعِدُ النفس برحلة ممتعة إلى الريف، فقد أُصيبت بخيبةِ أمل وهيِ تسمع صوت المطر المتساقط، ودخلت إلى المطبخ لتحضِّر طعام الفطور كعادتها في أيام العطل حيث شاهدت والدها وقد جلس متكوِّراً على نفسه يقرأ الجريدة بإرهاق واضح..

أما الأم فقد تأخر استيقاظها من النوم، فيومِ العطلة الأسبوعية هوِ اليومِ الوحيد الذي يمكنها فيه أن تنال قسطاً من الراحة والنوم، حيث تتكفّل ريمة بالقيام عنها بأغلب أعمال المنزل..

جلست العائلة أمام مائدة الطعام تتناول فطورها وقالت الأم:

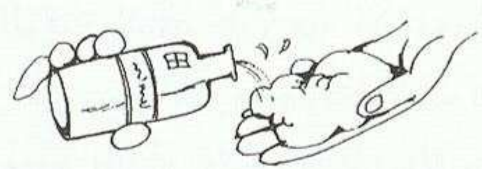
- يبدو أننا سنقضي هذا اليوم في المنزل.. الطقس سيِّئ جداً..

وقالت ريمة:

- هذا يوقعني في مشكلة يا أمي.. ماذا أفعل اليوم؟!

- إذهبي إلى صديقتكِ فادية.. أو اتصلي بها هاتفياً لتأتي إليك!!..

- إنها فكرة.. إذا أتت إلى بيتنا فسيكون لدينا الكثير لنفعله..



٢- فضل العرب على الطب

وتَدَخَّل الأب:

- أما أنا فعندي كتاب تاريخ الطب عند العرب.. سأقضي نهاري في مطالعته..

فقالت ريمة: وهل كانت علوم الطب متقدمة عند العرب يا أبي؟

- في الماضي نعم.. هناك أشياء مدهشة أقرأها في هذا الكتاب.. هل تعلمين مثلاً أن العرب منذ حوالى ألف عام كانوا يعرفون أكثر من ثلاثمائة وخمسين نوعاً من الأمراض، وقد درسوها وعرفوا عوارضَها وأسبابَها ووضعوا طرق تشخيصها وعلاجها..

هذا في الوقت الذي كان فيه الأوروبيون يعتقدون أن الأمراض من عمل الأرواح الشريرة وكانوا يداوونها بالسحر والشَّعْوَذَة اللذيْن لا علاقة لهما بالمرض من قريب أو بعيد!!

- في الحقيقة يا أبي.. هذه أشياء أسمع بها للمرة الأولى في حياتي..

- لكنها حقيقة يا ابنتي..

وتناول الأب كتاباً كان موضوعاً جانباً ثم أخذ يُقَلِّب صفحاته وقال:

- اسمعي.. إن العرب أول من عرف أن مرض الطاعون ينتقل بالعدوى وهم أول من أقام نظام المحْجَرِ الصحِّي في المرافىء، وذلك لحجز المسافرين المصابين

بالأوبئة حتى لا يتسببوا بانتشار عَدْوى المرض بين الناس..

أما في أوروبا في هذا الوقت، فقد كان الناس يكافحون وباء الطاعون بالابتهال فقط وحرق البَخّور.. لأنهم لم يكونوا يعرفون أن الطاعون ينتقل من مريض إلى آخر بالعَدْوى، بل كانوا يظنون بأنها لعنة تصيب المريض ولا مجال له للخلاص منها...

- وهل كان الأوروبيون على هذه الدرجة من التأخر؟!

- نعم كانوا يعيشون في ظلام دامس تملأه الخرافات وألاعيب الشعوذة في الوقت الذي كان فيه العرب يدرسون كل الظواهر التي يعرفونها ويضعون أسسها وقوانينها.. هل تعرفين مثلاً، أن أول مستشفى تَمَّ إنشاؤه في العالم: هو المستشفى الذي أنشأه الخليفة الأُموي «الوليد بن عبد الملك» وكان الأطباء والممرضون يعملون فيه بانتظام كأي مستشفى في عصرنا الحاضر، وقد سبق العربُ الغربيين في ذلك ثمانمائة عام كاملةً..

وقالت الأم وهي تضحك:

- يبدو لي أنكما وجدتما ما تتسليان به هذا اليوم.. أما أنا فسأترككما تتحادثان وأذهب لإكمال خياطة الفُستان الذي بدأت به أمس..

وسألت ريمة والدها:

- ما الفرق بين مِهْنَةِ التمريض ومهنةِ الطِّبِّ يا أبي؟!

- لست عالماً بهذه الأمور يا عزيزتي حتى أجيبك جواباً صحيحاً، لكن الذي أعلمه أن مهنة التمريض مكملة لمهنة الطب وهي ضرورية وهامة مثل مهنة الطب تماماً..

- حسناً أكمل لي حديثك عن الطب عند العرب..

وابتسم الأب وهو يطوي الكتاب ويضعه جانباً:

- يا لك من فُضولِيَّة.. ولكن أليس من الأفضل أن نكمل طعامنا ثم نجلس بعد ذلك في البهو ونتكلم بهدوء؟!

ونظرت ريمة بطرف عينها مازحةً وقالت:

- أعتقد أني شبعت!!

- أما أنا فلم أتناول سِوى لُقْمَتَيْن فقط.. أتسمحين

لي بتناول طعامي؟!

وضحكت ريمة وهي تقول:

- حسناً سأسبقك وأنتظرك في البهو..

انتهى الأب من طعامه وعاد إلى أريكته المفضلة التي اعتاد أن يجلس عليها دائماً، بينما كانت ريمة تتلهى بتَصَفُّح إحدى المجلات الموضوعة على المنضدة، وما إن جلس حتى بادرته بقولها:

- أبي.. أريد أن أسألك سؤالاً.. لقد قرأنا في كتب المدرسة أن اليونان هم أول من وضع علم الطب وكتب عنه، فكيف تقول لي إن العرب هم رُوّاد علم الطِّب؟!

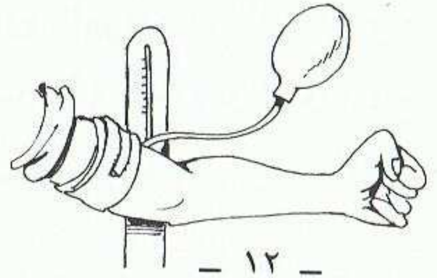
وصمت الوالد قليلاً.. كانت تبدو عليه علامات الإرهاق وقد وضع يده على بطنه وأخذ يُدَلِّكُه بصعوبة.. أما لونه فقد ازداد شحوباً ثم قال:

- هذه مشكلتنا الدائمة يا ابنتي.. لقد أرادوا طَمْسَ معالم الحضارة العربية.. كان الغربيون دائماً يتجاهلون فضل العرب على العلوم والفنون وينسبون هذا الفضل إلى الآخرين..

صحيحٌ أن علماء اليونان قد درسوا الطِّب ووضعوا له نظريات عديدة كان أغلبها خاطئاً ومبنيًّا على الظن والتخمين وليس على المراقبة والتجربة.. إلاّ أن هناك شعوباً عديدة كان لها نظريات أيضاً في الطب، مثل الآشوريـين والسومريـين والفراعنـة وهنود أميركا الجنوبية.. الطب عِلم قديم بدأ منذ بَدْءِ حياة الإنسان على وجه الأرض..

وتوقف الأب عن الكلام وقد بدا أنه يتنفس بصعوبة ثم أكمل:

– لكن العرب كان لهم الفضل الأول في نشأة علم الطب الحديث الذي يعتمد على التَّجْربة والمراقبة العلمية والموضوعية، فهم أول من ترجم كتب فلاسفة اليونان المتعلقة بالطب كما ترجموا غيرها، وقد بينوا مواقع الصواب والخطأ في هذه الكتب..



٣ – الوالد يشعر بعارض صحي

في تلك اللحظة شحب وجه الأب فجأة وتوقف عن الكلام وهو يلهث بشدة وأخذ يتلوّى واضعاً يده على بطنه.. وأسرعت إليه ريمة هَلِعَةً وصاحت:

– أبي.. أبي.. ما بك.. يا إلَهي.. أجبني.. ما بك..

وأجاب الأب بصعوبة:

– لا شيء.. لا شيء يا ابنتي.. إني أشعر بالألم في بطني.. لا بد أنه قد أصابتني لَفْحَةُ هواء..

وضمّت ريمة رأس والدها الشاحب إلى صدرها وصاحت:

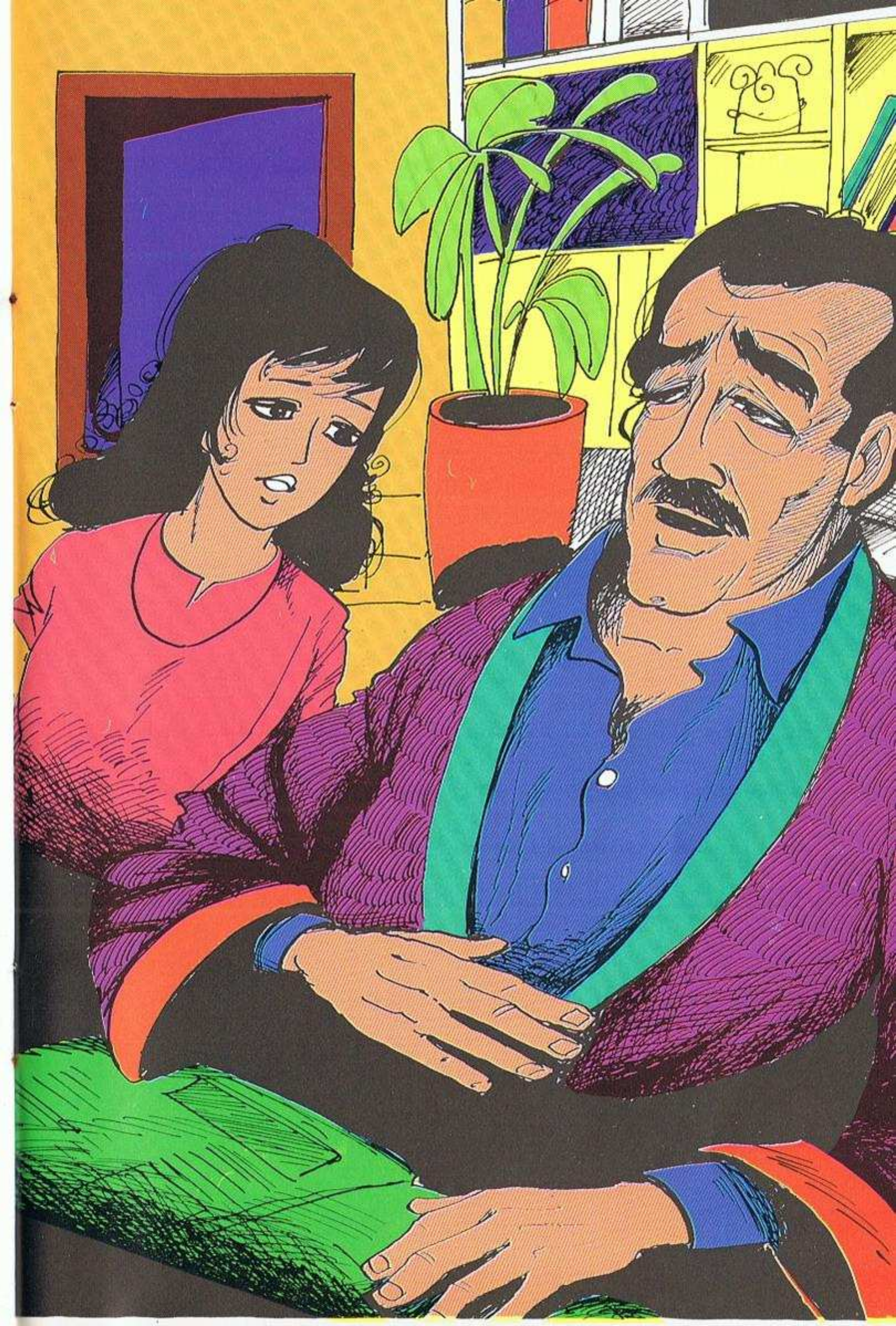
- أمي.. أمي.. تعالي بسرعة أرجوك..

وأسرعت الأم على صياح ابنتها ثم جلبت وسادة صغيرة وضعتها وراء رأسه وأخذت تمسح العرق الذي أخذ يتصبب من جبينه وقالت مخاطبةً ريمة:

- لا أعتقد أنها لفحة برد.. أنظري إلى العرق البارد الذي يتصبب منه..

أرجوك يا ابنتي.. أسرعي واتصلي بالدكتور نُهاد وليأتِ حالاً..





٤ - عَمَلِيَّةٌ جِراحيّةٌ

وقف الطبيب أمام الأب المُمَدَّدِ على الأريكة بعد أن عاينه وهو مقطَّب الجبين وقال:

- يجب نقله فوراً إلى المستشفى يا سيدتي.. إنها الزائدة الدودية.. إذا لم تُجرَ له العملية فسوف تَنْفَجِر ويصبح الأمر خطيراً..

وقالت الأم:

- وكيف ننقله يا سيدي.. هل نتصل بسيارة الإسعاف؟!

- ربما تأخرت سيارة الإسعاف في المجيء.. أليس لديكم سيارة لنقله؟!

- لدينا سيارة.. لكني لا أعرف كيف أقودها.. هو الذي يقود السيارة عادة..

وتدخلت ريمة قائلة بحماسة:

- أنا أقودها يا أمي..

- لكنك يا ريمة لا تحسنين قيادة السيارات جيداً!!

- بلى يا أمي.. لقد علمني أخي ربيع قبل سفره.. أؤكد لك.. يمكنني قيادتها بكلِّ سهولة.. على كل حال يا أمي لا يوجد أمامنا أيّ حلٍ آخر..

وأخذت الأم تنظر إلى ريمة ووالدِها بحَيرة ثم قالت:

- حسناً.. سأثق بك يا ريمة فلا تُخَيبي أملي..

- اعتمدي عليّ يا أمي..

وتعاون الثلاثة في حمل الأب الذي كان يئن من الوجع إلى داخل السيارة، ثم جلست ريمة أمام المِقْوَد وانطلقت بسرعة..

بعد نصف ساعة وصلت السيارة إلى المستشفى حيث تم إدخال الأب إلى غرفة العمليات فوراً، بينما جلست ريمة ووالدتها في غرفة الإنتظار والقلق بادٍ عليهما وسألت ريمة:

- هل تعتقدين أنه سيكون بخير يا أمي؟!

- اطمئني يا عزيزتي.. إنها عملية سهلة، ولا يوجد أيُّ خطر عليه ما دمنا قد نقلناه إلى المستشفى قبل أن تنفجر زائدته.. بالمناسبة إني أُهنئك يا ابنتي.. لم أكن أعرف أنك تحسنين قيادة السيارة إلى هذا الحد..

- لقد بذلت جهدي يا أمي.. كان لا بد أن أفعل ذلك لأنها كانت مسألة حياة أو موت..

وجلست الأم وابنتها تعدّان الثواني.. كان جو المستشفى غريباً على الفتاة وهي تنظر إلى الأطباء

والممرضات يذهبون ويجيئون بجدٍّ ونشاط وكأنهم في خَلِيَّة نحل، إذ كانت هذه المرة الأولى التي تدخل فيها مستشفى. لقد أحست بأن كل شيء هنا هادىء ومنتظم، فاطمأن قلبها إذ شعرت بأن والدها بين أيدٍ أمينة فجلست مسترخية على كرسيها وقد زال عنها القلق..

بعد حوالى نصف ساعة فُتح باب غرفة العمليات وخرجت منها سيدتان ترتديان ثياباً بيضاء وتضع كلٌّ منهما على فمها كمّامة من القماش وهما تجرّان العربة التي كان والدها ممدّداً عليها، وما إن رأتهما حتى أسرعت إليهما وقالت موجهة كلامها إلى إحداهما:

- المعذرة يا سيدتي الطبيبة.. هل تمت العملية بنجاح؟!

ونظرت إليها المرأة نظرة هادئة لطيفة وقالت:

- اطمئني.. إنه بخير وسيشفى إن شاء الله خلال عدة أيام.. ثم إني لست طبيبة يا صغيرتي.. أنا

ممرضة!!

واحمرّ وجه ريمة خجلاً وقالت بارتباك:

- المعذرة يا سيدتي.. ظننتك طبيبة فأنتم ترتدون ثياباً متشابهة.

- لا بأس عليك.. إلى اللقاء..

وانصرفت الممرضتان تدفعان العرَبة إلى إحدى الغُرَف، بينما أسرعت ريمة إلى والدتها وقالت:

- أمي.. أبي بخير والحمد لله وقد نجحت العملية.. هل يمكننا زيارته الآن؟!

- الحمد لله يا ابنتي.. هيا بنا إلى مكتب الاستعلامات لنسأل إذا كان بوسعنا أن نزوره الآن..

وتوجهت الاثنتان إلى مكتب وقفت وراءه إحدى الممرضات، وسألت الأم:

- هل يمكننا زيارة المريض الذي خرج من غرفة العمليات الآن؟

وابتسمت لهما الممرضة ثم أخذت تُقَلِّبُ بعض

الأوراق بين يديها ثم قالت:

- أعتقد أنه السيد نعيم الذي أُجريت له عملية اسْتِئْصال الزائدة الدودية.. أليس كذلك؟!

قالت الأم:

- نعم.. أنا زوجته وهذه ابنتي..

- إنه ما زال تحت تأثير المُخَدِّرِ يا سيدتي.. من الأفضل تَرْكُهُ يرتاح هذا اليوم ويمكنكما أن تزوراه غداً متى تشاءان..

وتوجهت الأم وابنتُها نحو باب الخروج وهما تشعران براحةٍ عميقة بعد أن زال الخطر عن الوالد..



٥ - في المستشفى

في صباح اليوم الثاني استيقظت ريمة ووالدتُها بالرَّغم من رداءة الطقس، وسارعت ريمة إلى تحضير الفطور.. كانت تشعر وكأنها لم ترَ والدها منذ شهور.. وسألت والدتها عن مفاتيح السيارة لكن الوالدة أجابت:

- لسنا مضطرتيْن اليوم لاستعمال السيارة يا عزيزتي ومن الأفضل أن نأخذ سيارة أجرة..

- لماذا يا أمي؟! هل أخطأتُ في قيادة السيارة أمس؟!

- كلا.. أبداً.. كنت عظيمة.. لكن القانون لا يسمح لك بقيادة السيارة ما لم تبلغي الثامنة عشرة من عمرك.. أمس كانت حالةٌ استثنائية، أما اليوم فلسنا مضطرتيْن لمخالفة القانون مرةً أخرى..

وقالت ريمة:

- الحق معك يا أمي.. سأخرج لأنادي سيارة أجرة.. اِنتظريني على الباب..

وأسرعت ريمة نحو الخارج بينما كانت والدتُها تضع معطفها وتقف على الباب بانتظار عودتها..

جلس الوالد مُمَدَّداً على سريره وقد بدَت عليه علامات الإعياء.. كان يبدو مرتاحاً بعض الشيء وقد تدلّى أنبوب المَصْلِ من الوعاء المعلّق فوق رأسه.. كانت إحدى الممرضات تناوله الدواء حينما دخلت ريمة ووالدتُها وتقدمتا نحوه بلهفة..

بدت على الأب نظرات السعادة والارتياح عندما رأى زوجتَه وابنتَه تَدخلان الغرفة، وأسرعت ريمة تضم والدَها وتعانقه بلطفٍ خوفاً من انزلاق أنبوب المصْلِ. وقالت الممرضة ضاحكة:

– حاذري يا صغيرتي.. لقد أعطيته منذ قليل مُخدراً لتخفيف آلام الجرح الناتج عن العملية..

ونظرت ريمة إلى الممرضة بقلقٍ لكنها سارعت بالقول:

– لا تخافي.. لا تخافي.. والدُك بخير تماماً، لكن هذا إجراءٌ نتبعه دوماً لأن الجُرْح غالباً ما يسبب بعض الآلام قبل أن يلتئم تماماً.

ووضعت الوالدَة يدها على جبين زوجها بحنانٍ وسألته:

– كيف حالكَ اليوم يا عزيزي.. هل تشعر بالألم؟!

أجاب بصوتٍ خفيض:

– منذ قليل كنت أشعر ببعض الألم.. لكنه زال

الآن بعد أن أعطتني الممرضة الدواء.. كيف حالكما.. هل قضيتما ليلة هادئة؟!

– كنا قلقتَيْن عليك.. خاصة ريمة التي لم يغمض لها جفْن..

وكانت الممرضة قد انتهت من عملها فقالت قبل أن تنصرف وتغلق الباب وراءها:

– من الأفضل يا سيدتي ألا تُطيلا الزّيارة.. يجب تركه لينال بعض الراحة ويمكنكما معاودة الزيارة بعض الظهر..

وقالت ريمة:

– أنا لا أريد أن أذهب إلى البيت.. هل يمكنني البقاء في المستشفى إلى أن يحين موعد الزيارة الثانية؟!

قالت الممرضة:

– لا مانع من ذلك.. وإذا شعرت بالملل فيمكنك زيارتي في مكتبي.. إنه في الدور الثاني الغرفة رقم «٢٢».

وسألت ريمة بدهشة:

– وهل لديكِ مكتب هنا يا سيدتي..

– نعم.. فأنا رئيسة الممرضات في هذا المستشفى ويَسُرُّني استقبالُكِ في أيّ وقت تشائين.. إلى اللقاء..

وأغلقت الممرضة الباب وراءها بهدوء وقالت ريمة:

– أتدرين يا أمي.. إن مِهنة الممرضة مهنةٌ جميلة.. بودي لو أصبح ممرضة ناجحة مثل هذه السيدةِ اللَّطيفة.. أتعرفين كم يلزم من الوقت لدراسة مهنة التمريض؟!

– لست أدري.. أظن سنتين أو ثلاث.. على كل حال.. لماذا لا تستفيدين من وجودك هنا وتزورين رئيسة الممرضات.. أظن أنها ستعطيك كل الأجوبة التي تريدينها

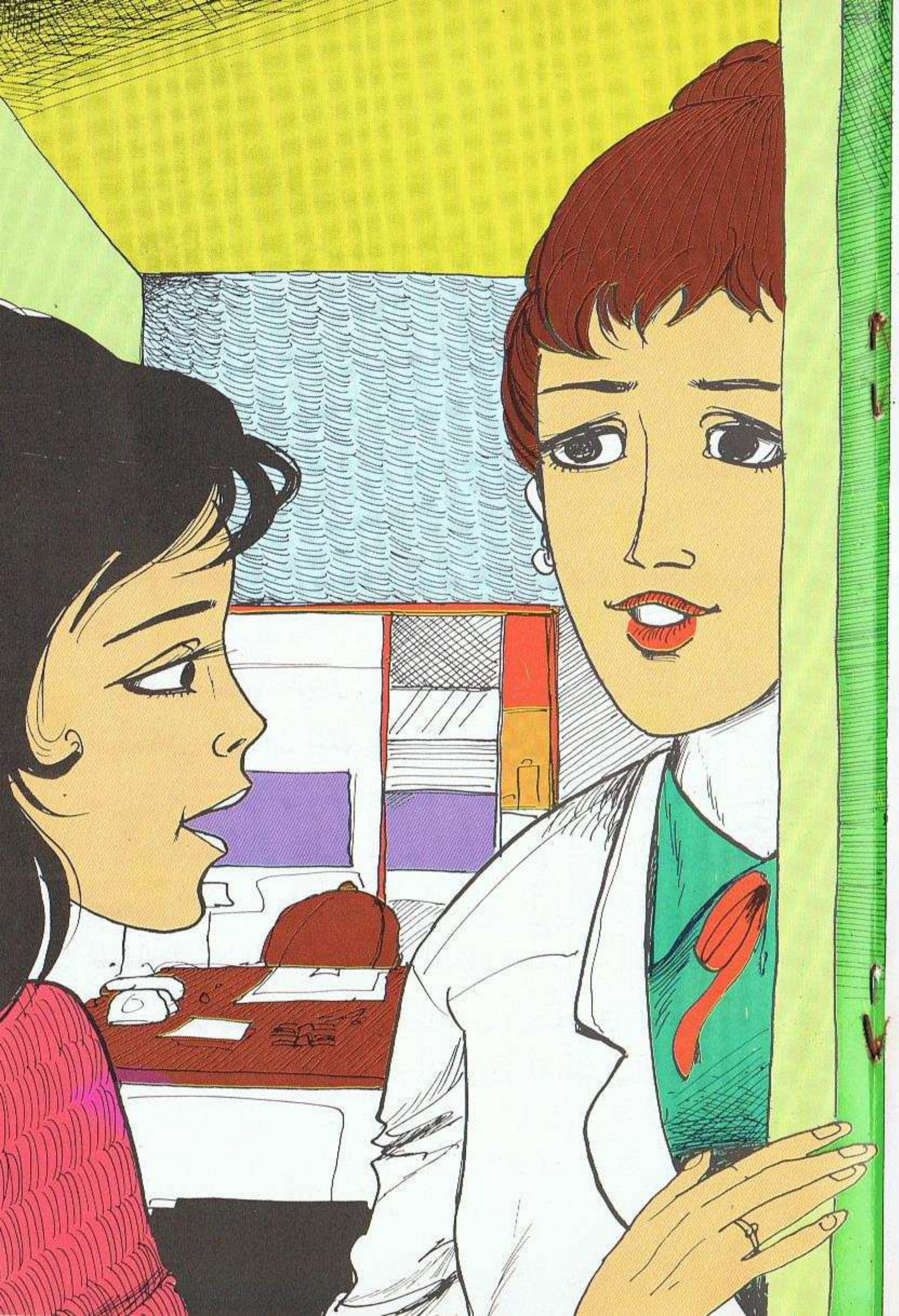
– إنها فكرة جيدة.. وأعتقد أني سأنفذها..

– حسناً.. لنخرج الآن من الغرفة وندع والدَك يرتاح.. لقد بدأ بإغماض جفنيه وأعتقد أنه سينام بعد قليل.. هيّا بنا..

وخرجت الاثنتان من الغرفة وتوجهتا نحو صالة الإنتظار..

٦– التَمْريضُ مِهْنَةٌ إنسانيَّةٌ

بعد حوالى نصف ساعة غادرت الأم المستشفى عائدةً إلى البيت. وبقيت ريمة وحدها في صالة الانتظار.. لقد أعجبها جو المستشفى الهادىء المنظَّم وجعلها تشعر براحة نفسية كبيرة، لكنها سُرعان ما شعرت بالملل وقررت أخيراً أن تزور رئيسة الممرضات في مكتبها، فصعدت



إلى الدور الثاني وطرقت باب الغرفة رقم « ٢٢ » ووقفت مرتبكة، لكن سُرعان ما زال ارتباكها عندما فتحت الممرضة الباب ورَحَّبَتْ بها بابتسامتها المحببة ودعتها إلى الدخول قائلةً:

- أهلاً.. أهلاً بك يا ريمة.. أرجو أن يعجبك مكتبي المتواضع.. واحمر وجه ريمة خجلاً وقالت:

- شكراً يا سيدتي.. ولكن كيف عرفتِ اسمي؟!

- لقد سمعت أمك تناديك في الردهة قبل ذهابها..

وجلست ريمة على أحد المقاعد وهي تتفحص المكتب.. إنه يُذكِّرها بمكتب الطبيب الذي ذهبت إليه مع والدتِها عندما كانت مصابةً بالسُّعال منذ مدة.. الجدران مليئة برفوف أنيقة بُنيَّةِ اللَّون وُضِعَت فوقها الكتب وإناء زجاجي صغير وضِعت فيه بعض الورود الحمراء..

وقطع عليها تأملَها صوتُ الممرضة تقول:

- والآن يا عزيزتي.. ماذا تشربين؟ ما رأيك بكوبٍ من عصير البرتقال؟

- شكراً يا سيدتي..

ودخلت الممرضة إلى مطبخ صغير ملحق بمكتبها ثم عادت تحمل كوب البرتقال وقدمته إلى ريمة ثم جلست وراء مكتبها وقالت:

- هل لديك إخوة يا ريمة؟

- أخٌ واحد فقط.. إنه يدرس في إحدى جامعات فرنسا..

- لاحظتُ من شدة قلقك على والدك أنك تحبينه كثيراً..

- طبعاً يا سيدتي.. ومن لا يحب أباه.. لكن قولي لي.. هل يمكن أن تلتهب الزائدة الدودية مرة أخرى؟!

- كلا.. لأنها اسْتُؤْصِلَتْ وتخلص منها نهائياً..

- لقد كان هذا غريباً يا سيدتي.. فوالدي رجلٌ صحيحُ الجسم قوي البُنية ولم يسبق أن شعر بأيّ مرض، طبعاً ما خلا الزُّكام والسُّعال الذي يصاب به أكثر الناس.

- إن الزائدة الدودية عضوٌ موجود في أجسام كل الناس، وهو قد يلتهب فجأة دون أي سبب ونحن كلنا

معرضون لذلك..

وصمتت الاثنتان قليلاً ثم قالت ريمة:

- هل كنتِ حاضرةً أثناء إجراء العملية لوالدي؟

- نعم وقد ساعدت الطبيب في عمله..

- هل تُحبين هذه المهنة يا سيدتي.. أليست مهنة الطبيب أجمل؟

- لو كنت أرغب بأن أصبح طبيبةً لأصبحت طبيبة.. أنا أحب هذه المهنة، ثم ضحكت الممرضة وقالت لريمة مداعبة:

- هه.. ولكن.. هل تُجْرين معي تحقيقاً صحفياً؟!

- أعذريني إذا أكثرت من أسئلتي.. لكن في الحقيقة أحب هذه المهنة منذ كنت صغيرة وأريد أن أصبح ممرضة بعد أن أنال شهادتي الثانوية.. وأريد أن أعرف كل شيء عن مهنة التمريض، فربما لا تكون هذه المهنة كما كنت أتخيل..

- أنا متأكدة من أنك اخترت المهنة الصحيحة المناسبة لك.. لأن حُبَّ هذه المهنة والتعلقَ بها هما أول

شروط النجاح فيها.. هذا بالإضافة إلى أنها ليست مهنة مُمِلَّة أبداً..

– ما الفرق بين مهنة الطبيب ومهنة الممرضة؟

وأطرقت الممرضة تُفَكّر قليلاً ثم قالت:

– في الواقع إنها مهنة مُكَمِّلَة لمهنة الطب ومتصلة بها.. كيف أشرح لك الأمر.. مثلاً كما تتصل مهنة الملحِّن الموسيقي بمهنة العازف..

إن العازف لا يمكن أن يقوم بعمله إذا لم يكن لديه لحنٌ يعزفه.. كذلك لا فائدة من عمل الملحن إذا لم يكن هناك من يعزف ألحانه.. وهكذا الأمر بالنسبة إلى الطبيب والممرضة..

إن عمل الطبيب المحدد هو شفاء الأمراض التي تصيب جسم الإنسان، كما تكون مثلاً مهمة الميكانيكي إصلاح الخلل الذي يصيب محرك السيارة.. لكن الفرق كبير بين هذا وذاك، لأن الميكانيكي يعمل على آلة صماء مكونة من الفولاذ والمعادن، فإذا ما أصيب عطل بأي جزء منه عمل على إصلاحه وإبداله وينتهي الأمر عندما

يتم تركيب الجزء الذي كان عاطلاً ويعود المحرك إلى العمل..

أما الطبيب فإنه يعمل على جهاز عجيب صَنَعه الخالق سبحانه وتعالى، وهو جهاز حساس يتأثر بالصوت والضوء والحرارة والكهرباء، كذلك يتأثر بالحب والعطف والكراهية.. هذه كُلُّها مؤثرات قد لا تصيب محرك السيارة بأي شيء، لكنها تؤثر بجسم الإنسان وقد تقضي عليه في بعض الأحيان..

إن الصعوبة في شفاء أمراض جسم الإنسان أنها لا تتم بسرعة، بل تستلزم بعض الوقت الذي يطول أو يقصر حسب نوع المرض، والمريض في هذه الأثناء، أي أثناء مرحلة استشفائه التامة، يجب أن يوضع في ظروف صحيَّة ونفسية مناسبة وإلا تعطلت عملية الشفاء.. وهنا يأتي دَوْر الممرضة الأساسي.. إنها هي التي تسهر على استقرار ورعاية هذه الظروف التي يوضع تحتها المريض..

وقاطعتها ريمة قائلةً:

– المعذرة يا سيدتي.. في الحقيقة لم أفهم تماماً الجزء

الأخير من كلامك عن الظروف الصحية والنفسية الضرورية لشفاء المريض التام..

- حسناً.. سأشرح لك الأمر بطريقة مبسطة أكثر.. لنفرض أن مريضاً قد أُجريت له عملية خطيرة.. مثلاً.. عملية إصلاح صمام القلب.. عندما يخرج المريض من غرفة العمليات يكون جسمه في وضعٍ ضعيفٍ جدًّا، ولذلك تجب مراقبته بعد هذه العملية عدة أيام، فيجب إبقاء نبضه وتنفسه على وتيرة معينة، كذلك تجب مراقبة حرارته، ثم يجب إطعامه نوعاً معيناً من الطعام قد يكون هو عاجزاً عن تناوله.. ولذلك يجب أن يتولى شخصٌ ما عملية إطعامه بيده..

ثم هناك عملية تغيير الضِّمادات التي وُضعت على الجرح، وإعطاء الحُقَن الضرورية في بعض الأحيان، ثم إذا اضطر المريض للتَّحرك أو التنقل من مكانه فيجب أن يكون هناك شخص خبير يساعده في ذلك.. لأن أية حركة خاطئة قد تكون السبب في تمزيق الجرح مما يدعو إلى إعادة تقطيبه وقد يكون الأمر خطيراً..

كل هذه الأعمال هي من واجب الممرضة، فهي تراقب نبض وحرارة المريض ليلاً نهاراً عند الضرورة، فإذا وَجَدت أن هناك ما لا يسير على ما يرام أخبرت الطبيب حالاً لكي يأتي ويتخذ الإجراءات الضرورية، وهي تطعم المريض بيدها إذا كان عاجزاً عن ذلك، وهي التي تغيِّر الضِّمادات له، وهي التي تعطيه الحقن التي وصفها الطبيب، وهي التي تساعد المريض عندما يريد أن يتنقَّل أو يتحرك.. كما ترين أنه عمل هام وأساسي لا يمكن الاستغناء عنه..

- هل ينحصر عمل الممرضة في هذه الأمور فقط؟

وابتسمت الممرضة وقالت:

- هذا جزءٌ بسيط من عمل الممرضة.. إذا أردتُ أن أحصي لك الأعمال التي تقوم بها الممرضة لامْتَدَّ بنا الحديث ساعات..

- وفي غرفة العمليات؟ .. هل تساعد الممرضة الطبيب في عمله؟

- طبعاً.. لا يمكن للطبيب أن يقوم بعمله في غرفة

العمليات بدون مساعدة الممرضة.. فهي التي تناوله الأدوات الجراحية، وهي التي تُشَغِّلُ الأدوات والمعدات اللاّزمة لذلك..

إن عمل الممرضة هام بقدر ما هو عمل الطبيب هام.. تصوري مثلاً مستشفى يُدار من غير ممرضات.. بل تصوري عيادة طبيب تُدار من غير ممرضة.. انزلي إلى الردهة في الطابق الأول وانظري حولك.. سترين الممرضات يقمن بأغلب الأعمال.. حتى الأعمال التنسيقية والإدارية تتولاها غالباً ممرضة ذات خبرة..

وإذا أردنا الحقيقة فإن المستشفى كمؤسسة صحية يعتمد في الدرجة الأولى على الممرضات والممرضين، فهم عِمادُها.. مثلاً، ليس من الضروري أن يوجد الطبيب دائماً في المستشفى، لأن وجوده ليس ضرورياً إلا عندما يقوم بالكشف على المريض أو إجراء العمليات الجراحية..

وهكذا نرى أن أغلب الأطباء الذين يعملون في هذا المستشفى لهم عياداتهم الخاصة ويأتون إلى هنا في أوقات



قصيرة معينة إلا عند الضرورة طبعاً، ولكن، تصوري لو غابت ممرضة واحدة دون أن تُؤمِّن بديلاً يعمل عنها لدبَّت الفوضى في المستشفى ولاضطربت أشياء كثيرة..

- إذن هل يمكن أن نعتبر أن الممرضة نصف طبيب؟! أو طبيباً درجة ثانية؟

- كلا بالطبع يا ريمة.. هذا خطأٌ واضح.. إنها ليست طبيباً ولا نصف طبيب، إنها ممرضة وعملها يختلف كليًّا عن عمل الطبيب.. هل تعلمين أن الممرضة إذا أرادت أن تنال أعلى شهادة في التمريض فعليها أن تدرس في معاهد التمريض ما يقارب الخمس أوالست سنوات، أي نفس المدة التي يقضيها الطبيب حتى ينال شهادته ويتخرج..

كذلك توجد اختصاصات عديدة للتمريض مثل الطب تماماً، مثلاً.. هناك الممرضة التي تتخصص في العناية بمرض القلب، أو الأمراض الوبائية، أو الأمراض النسائية وأمور التوليد.. إنه علمٌ قائمٌ بذاته.

وقالت ريمة وقد تخلصت من خجلها وهي تدير نظرها

في الغرفة:

- في الحقيقة إن ما يجذبني في مهنة التمريض أنها مهنة إنسانية.. وكلامُك قد أكَّد لي ذلك.. إن الطبيب يتعامل مع الجسم كآلة معطوبة يجب إصلاحها وينتهي دوره عندما يقوم بذلك..

أما الممرضة فإنها تتعامل مع المريض كإنسان وهي تقوم بتكييف الجو الصحي والنفسي الذي يلزمه للشِّفاء التام، بالإضافة إلى أنها تقضي مع المريض وقتاً أطول مما يقضيه الطبيب..

- في كلامك شيء من الصحة، ولكن اعلمي أن الطبيب أيضاً يجب أن يكون دوره إنسانياً وبهذا يتميز الطبيب الناجح عن طبيب آخر، لكن الممرضة بسبب ملازمتها للمريض طوال فترة معالجته فإنه من المفترض فيها أن تكون اجتماعية أكثر، وذات وجهٍ بشوش يبعث على الثقة والرضى.

ويجب أن لا يخفى عنكِ أن الحالة النفسية للمريض تؤثر كثيراً على طريقة تقدمه في درب الشفاء.

ومن واجب الممرضة أن تُهيىء الجو النفسي المريح للمريض..

- أرى من ذلك أن عمل الممرضة ليس سهلاً.. إنه فنٌّ تقريباً، ولكن هل تنال الممرضة أجراً كافياً مقابل العمل الصعب الذي تقوم به؟!

- طبعاً.. هناك بعض الممرضات المتمرسات ينلن أجوراً عالية.. إنها مهنة جيدة لها مكانها المرموق في المجتمع..

ووضعت ريمة كوب العصير على المنضدة بعد أن انتهت منه وقالت:

- إني أشكرك جداً يا سيدتي.. لقد شغلتك كثيراً بأسئلتي ولا بد أن وراءك أعمالاً كثيرة فاسمحي لي بأن أنصرف..

- لا بأس عليك.. يمكننا أن نبقى معاً عدة دقائق أيضاً.. لقد طلب مني مدير المستشفى أن أوافيه بعد ربع ساعة لكي نضع دواماً جديداً لحضور الأطباء وبعض الأمور الإدارية، ويمكننا في هذه الأثناء أن نتحدث

عن أمور أخرى غير الطب والتمريض.. ما رأيك؟

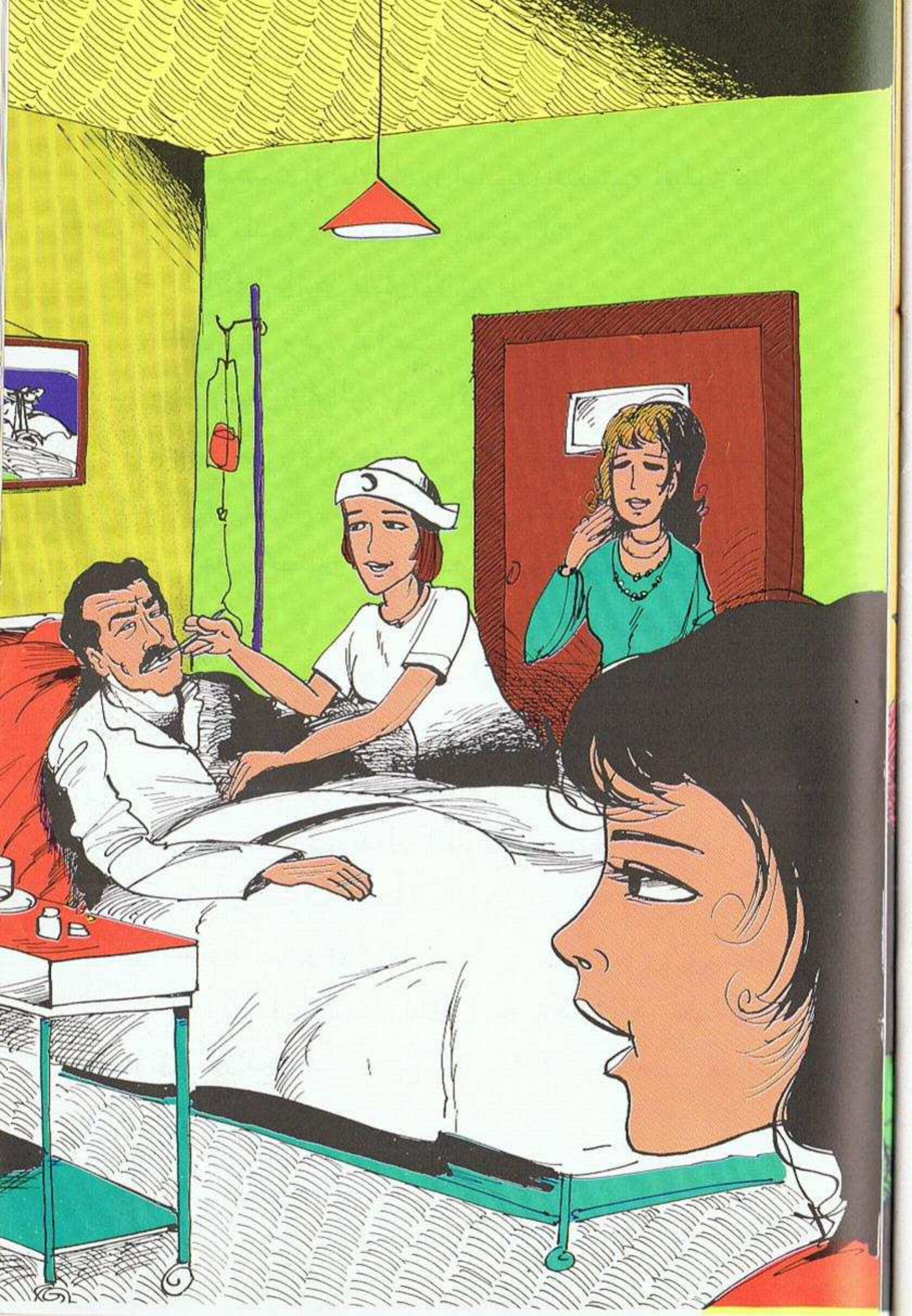
وضحكت ريمة بسعادة، وقالت:

- هل تمانعين بأن نصبح صديقتيْن؟

- هذا يسرني ويسعدني يا صغيرتي.. ويمكنكِ أيضاً زيارتي في هذا المستشفى في أي وقت تريدين.. لا يمكن للإنسان أن يحصل على صديقة صغيرة ولطيفة وذكية مثلك في أي وقت..

وضحكت الاثنتان ببهجة وحبور، وكانت فرحة ريمة لا حدَّ لها لأنها تعرفت على صديقة جديدة وخاصة لأنها تعمل في الحقل الذي تحبه.. حقل التمريض..





٧- شِفاءٌ سَريع

جلس الأب في سريره وأمامه ريمة ووالدتها.. هذه المرة كان يبدو بحالٍ أفضل من المرَّة السابقة.. بدا واعياً تماماً بعد أن زال عنه أثر التخدير وكانت الابتسامة تعلو وجهه. وقالت الأم:

- كيف تشعر الآن يا عزيزي؟

- بخير والحمد لله.. لم أعد أشعر بأي ألم.. أين قضيتما هذه الفترة؟

– أنا ذهبت إلى المنزل.. أما ريمة ففضّلت البقاء هنا طوال هذه المدة: وقال الأب مستغرباً:

– هنا؟! لم أرها سوى الآن..

وقالت ريمة وهي تداعب وجه والدها:

– لا تشغل نفسك بهذه الأمور يا أبي.. لقد كنت أتجول بالمستشفى وتعرفت هنا على صديقة جديدة لطيفة ورائعة..

– وهل تحصلين على الصديقات بهذه السهولة يا ابنتي؟!

– إنهـــا ليست صديقـــة عاديـــة.. إنهـــا رئيسة الممرضات!!..

– وهل تناولتِ طعام الغداء؟

– نعم.. تناولتُ طعام الغداء في مطعم المستشفى.. ماذا تريد أن تعرف أيضاً؟

وابتسم الأب وهو يقول:

– لم أكن أدري أن لديَّ ابنة يمكنها الاعتماد على نفسها في أي مكان..

– ولم تكن تعلم أيضاً بأن ابنتك هي مشروع ممرضة؟!

– مشروع ممرضة.. ماذا تقصدين..

– لقد قررت أن أدخل مهنة التمريض بعد أن أنال شهادتي الثانوية!!

– قرار جيد يا عزيزتي.. الآن إطمأن بالي.. أصبح لدي الآن من يعتني بي عندما أمرض!

– أبعد الله عنكَ المرض يا أبي.. أُفضل أن أعتني بك وأنت صحيح الجسم!

وضحكت الأم وقالت مداعبةً:

– وأنا يا ريمة.. ماذا تركت لي؟

– حسناً.. حسناً... سنتقاسم الاعتناء به.. ما رأيك؟

وضحك الجميع ثم قال الأب هامساً:

– أرجو ألا يُطيلوا سَجني هنا.. فإني لا أطيق الجلوس في هذا السرير دون حِراك..

وفُتح باب الغرفة وأطَلّتْ منه إحدى الممرضات حاملةً بيدها ميزاناً للحرارة وزجاجةً من الدواء ويبدو

أنها سمعت الوالد يهمس فقالت:

- بماذا تتهامسون؟ هل هناك مشكلة؟!

أجاب الأب مرتبكاً:

- كلا.. كلا.. كنت أقول إن الإقامة في هذا المستشفى مريحة..

- إذن لا ضرورة لأن تهمس بهذا الأمر.. نحن لا نمانع إذا سمعنا بعض الإطراء.. والآن افتح فمك وتناول هذا الدواء..

ونظر الأب إلى زوجته بحيرة وهو يقول:

- وهل هذا ضروري؟.. أنظري.. لقد شفيت.. إني مثل الحصان..

- هذا دواء مضاد للالتهاب وهو ضروري..

وضحكت ريمة وقالت:

- أبي ليس متعوداً على تناول الأدوية وهو لا يحبها..

وغمزتها الممرضة بعينها مبتسمة وهي تقول:

- والآن ضع ميزان الحرارة في فمك أيضاً..

وأُسقط في يد الأب وفتح فمه وهو مكتئب بين ضحك زوجته وابنته وقال:

- أين الطبيب.. أريد أن أسأل الطبيب أن يعفيني من هذه الأُمور..

أجابت الممرضة وهي تضع ميزان الحرارة في فمه:

- نحن ننفذ أوامر الطبيب يا سيدي.. وعلى كل حال، لقد قام الطبيب بعمله ولم يعد له علاقة بالأمر.. أنت تحت إشرافنا الآن!!..

- تحت إشرافكم؟!- قال الأب- من أنتم؟

- نحن الممرضات!!

وبعد أن انتهت الممرضة من عملها قالت:

- عظيم.. حرارتك طبيعية وكل شيء على ما يرام.. لا تنسَ.. إذا أردتَ أي شي إضغط على هذا الزِّر الذي بجانبك فنكون رَهْنَ إشارتك وخرجت الممرضة من الغرفة وابتسامتها العريضة ما تزال على وجهها وانتظر الأب أن تغلق الممرضة الباب قبل أن يقول:

- من تحسب نفسهـا تلك المرأة حتى تعطيـني الأوامر؟!

قالت ريمة: إنها تفعل ذلك لمصلحتك يا أبي..

- وهل من الضروري أن تعاملَني كالأطفال؟!

- إنها تعاملك كما يقضي واجبها، وواجبها أن تعتني بك وتوفِّر لك الأجواء النفسية المريحة إلى أن تشفى.

- هم مم.. من قال لك هذا الكلام؟

- أنا أعرف ذلك.. هذا عمل الممرضة.. لا تنسَ أني في العام القادم سأبدأ في دراسة التمريض..

ونظرت الأم إلى ابنتها نظرةً ذاتَ مغزى وابتسمت ثم قالت:

- الآن فهمت أين قضيتِ كل هذا الوقت داخل المستشفى.. لا بد أنكِ لبيت دعوة رئيسة الممرضات وقمتِ بزيارتها!!

- كيف عرفتِ؟

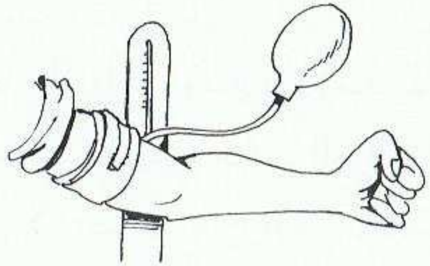
- ولا بد أنك كنت فُضولية كعادتك وأتعبتها بأسئلتك!

- بالعكس يا أمي.. كانت لطيفة جداً معي.. لقد سألتها بعض الأسئلة عن التمريض وأجابتني بكل رحابة صدر..

- يا لك من شقيَّة.. هل يمكننا أن نقول إنه أَصبح عندنا في البيت الآن ممرضة؟!

- تقريباً ..

وساد جو من المرح في الغرفة بينما كانت العائلة الصغيرة تتحادث وتتبادل النّكات..



٨- العَوْدَة إلى البَيْت

انتهت فترة النقاهة وشُفي الأب تماماً وعاد إلى البيت، لكن الطبيب نصحه بعدم العودة إلى العمل إلا بعد أسبوع حتى لا يصاب بالإرهاق. وذات مساء جلس الأب في الصالة كعادته يطالع أحد الكتب بينما جلست ريمة تنظر إلى جهاز التلفزة بِوُجومٍ.. كانت ريمة فتاة مرحة ذات وجه باسم ولذلك عرف والدها أن شيئاً ما قد

أقلقها وجعل الوجوم يبدو على وجهها.. نظر إليها من وراء النّظارات التي يضعها على عينيه عندما يقرأ وقال:

- ما بك يا ريمة.. لماذا أنت حزينة؟!

- لا شيء يا أبي.. لا تقلق عليَّ..

- لا تحاولي أن تداوري يا ريمة.. لن أطمئن إلا إذا عرفتُ ما بكِ..

- ليس أمراً مهماً.. إطمئن.. إحدى صديقاتي أُصيبت بوعكة صحية وأنا قلقة عليها.

لو لم يكن الأمرُ مهماً لما بدا عليكِ الحزن إلى هذه الدرجة.. أخبريني حقيقة الأمر يا ابنتي..

وأدارت ريمة وجهها محاولةً إخفاء دمعه صغيرة نزلت من عينها وقالت:

- إنها صديقتي « ثُريا » يا أبي.. لقد أصيبت بحادث سيارة..

- يا إلهي.. وهل حالتها خطيرة..

- كلا والحمد لله.. أصيبت ببعض الرضوض والكُسور وستشفى قريباً..

- إذن لماذا أنت واجمة ما دامت ستشفى وتعود إلى حالتها؟!

- الأمر ليس هنا يا أبي..

- إذن ما هو الأمر.. هيا تكلمي..

- لقد أمرها الطبيب بملازمة الفراش لمدة أسبوع..

- حسناً.. هذا لا يبعث على القلق..

وصمتت ريمة قليلاً ثم قالت:

- سيكون الأمر صعباً عليها يا أبي.. أنت تعلم أنها وحيدة لا إخوة لها، ووالدها يعمل في أحد المصانع، كذلك والدتها تعمل موظفة ولن تتمكن من البقاء معها وملازمتها في البيت..

- بإمكانهم أن يجلبوا لها ممرضة تعتني بها.

- هنا المشكلة يا أبي.. لأن أحوالهم المادية متواضعة جدًّا وليس بإمكانهم دفع نفقات وأجور الممرضة.

- حقاً.. إنها مسألة صعبة!

في تلك اللَّحظة دخلت الأم تحمل صينية عليها بعض الأكواب وقالت بمرح:

- لقد صنعت لكما بعض الأرز بالحليب.. تذوقاه وأبلغاني رأيكما..

وفجأة لاحظت الأم جو الصمت المُطْبِق في الصالة فقالت:

- ما بكما؟ هل هناك شيء يحزُنكما؟!

وشرح الأب لزوجته الأمرَ وبعد أن انتهى قالت الأم:

- اسمعي يا ريمة.. لقد خطرت ببالي فكرة!!.

- وما هي يا أمي؟!

تعلمين أن المدارس أعطت طلابها فرصة أسبوع بمناسبة الأعياد.. أليس كذلك؟

- نعم.. لكن هذا لا يغير من الأمر شيئاً.. ثُريا طالبة مجتهدة ولن يؤثر عليها غيابها مدة أسبوع عن الدراسة..

وانفرجت أساريرُ الأم وكأنها وجدت الحل وقالت:

- ليس هذا ما أقصد.. إن ما أقصد هو أنك إذا ذهبتِ إلى بيت ثُريا وبقيت معها خلال هذا الأسبوع

لتعتني بها في غياب والدتها فإن المشكلة تكون قد حُلّت!!
وفكَّرت ريمة قليلاً محاولة استيعاب ما قالته والدتُها ثم قَفَزَت نحوها تقبّلها وتضمها وقالت:

- يا لك من أم عظيمة يا أمي.. هل ستسمحين لي بهذا؟

- إني أعني ما أقول.. ألم تقولي بأنك تريدين أن تصبحي ممرضة؟!

.. هذه فرصة جيدة لتختبري فيها حياة الممرضة الحقيقية ما رأيك؟

وركضت ريمة إلى أمها مهللة وأخذت تقبلها وهي تقول:

- لا أدري ماذا أقول يا أمي.. إني اشكرك كثيراً على ثقتك بي..

٩ - جزاء المعروف

مضى الأسبوع.. كانت ريمة خلاله تعتني بصديقتها وتشرف على علاجها باذلةً أقصى ما تستطيع من العناية وكأنها ممرضة خبيرة متمرسة، إلى أن شفيت صديقتها والتأمت جروحها وأصبح باستطاعتها العودة إلى المدرسة..

ولم يذهب معروف ريمة سُدًى.. فقد سمِعت احدى الموظفات اللواتي يعملن مع والدة ثريا بالحكاية، وكانت تلك الموظفة صديقة لمديرة معهد التمريض الوطني التي عرفت القصة بدورها، واعجبت باندفاع ريمة للقيام بواجبها تجاه صديقتها، فنوت أمراً، وقررت أن تقوم ببادرة تكافىء فيها هذه الطالبة الإنسانية..

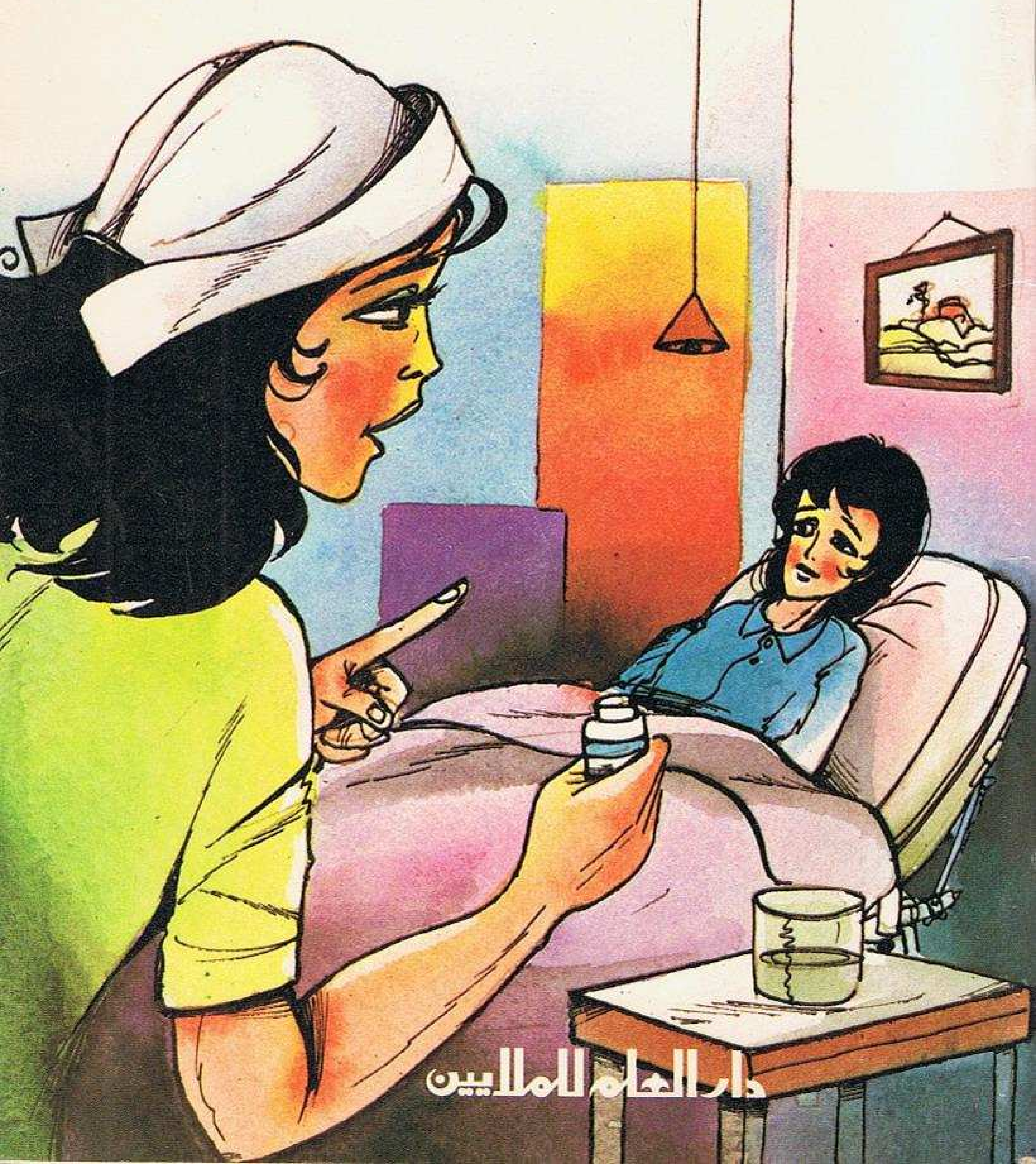
وفي اليوم الأول من المدرسة، بعد انتهاء العطلة.. فوجئت الطالبات في صف ريمة بدخول المديرة عليهن، ثم وقفت أمامهن وعلى وجهها ابتسامة عريضة وقالت:

- يسرني يا عزيزاتي ان أزفَّ إليكنَّ خبراً مفرحاً.. خبراً يدل على أن الخير ما زال موجوداً في هذه الدنيا، وعلى أن للمعروف جزاءً لا يمكن أن يضيع.

لقد وصلتني في بريد اليوم رسالة من مديرة معهد التمريض الوطني، تُعْلِمُنِي بتخصيص منحة لدراسة فن التمريض باسم الطالبة صديقتكم ريمة، وذلك مكافأةً لها على العمل الذي قامت به من أجل صديقتها، بعد أن تبرعت بأن تكون ممرضتها أثناء مرضها وقامت بعملها على أكمل وجه. ستكون تلك المنحة جاهزة يمكن لريمة استلامها بعد أن تنال شهادتها وتتخرج من المدرسة.. لنقف جميعاً ولنصفق للطالبة الإنسانية ريمة..

ووقفت الطالبات وهن يصفقن ثم اندفعن نحو ريمة يقبلنها وقد أخذهن الحماس.. وشعرت ريمة وكأنها تحلم.. أيمكن أن يكون هذا صحيحاً؟!.. لم تكن تريد أن تفكر بالأمر كثيراً.. كان يكفيها هذا التقدير وهذا الحب الذي لقيته من كل من حولها وخاصة من صديقاتها الطالبات...

الممرضة الصغيرة



دار العلم للملايين